مدرسة ...

للأستاذ أحمد الطاهر

سجا الليل وغشى المدينة ظلام دامس ، وكنت قد اخترت لليلتي كتاباً أخلو إليها كما يختار الأصدقاء : قليلة العدد كثيرة الوفاء . ولكنني برمت بها وبمجلسي ، فطويت أجنحتها وعمدت إلى المصباح فأغمضت عينه ، واندفعت إلى شرفة بمنزلي ففتحت بابها وخلوت إلى السماء ؛ فإذا القمر يطل منها على الأرض ، ويسكب عليها فيضاً سخياً من ضوئه الوهاج . ولا يستطيع أولو الأمر في الحرب أن يرقوا إليه ، فيسدلوا عليه حجاباً أو يندروه عقاباً . وقلت في نفسي ما يقوله الناس في هذه الأيام : وا حسرتاه ! كنا نجد في ضوء القمر لذة ومتاعاً ، حين كان السلم يبسط رواقه على المأمنين ، واليوم نوجس منه خيفة وارتياعاً ، حين اتخذت الطائرات ضوءه سلماً تهبط به على الآمنين . وما كادت الحرب تخطر ببالي حتى دفعتها عني دفعاً . وأرسلت البصر إلى السماء ، فرأيت سحابة باسطة الذراعين تجر أذيالها تسعى إلى القمر في تؤدة ووناء ؛ ثم تبسط يدها على وجهه فيخبو ضوؤه قليلاً ؛ ثم تنداح فتحجب أكثر هذا الضوء ؛ ثم تنجاب عنه فإذا هو خارج من غمرته منبسط الأسارير كما عهدته . وإذا السحابة تخلفه وراءها وتمضي وهو باسم بسمة الحليم حين يمتحن في حلمه ، وهي مطمئنة اطمئنان القوي حين يفوز بخصمه

سبحانك اللهم ! وغفرانك ! حسبنا أنا حرمنا نعمة الضياء بهذه الحرب فبسطت لنا في سمائك كتاباً فيه سطور من نور . وحسبنا أننا قطعنا الأسباب على كل مبعث للضياء بما أسدلنا من سجف وأستار ؛ وإذا ضياء سمائك لا يحجبه حاجب ولا يمنعه ستار !

ترى هل أستطيع أن أقرأ في هذا الكتاب المبسوط في السماء ؟ هل من سبيل إلى فهم بيان السماء ؟ هل أفوز من القمر والسحاب والسماء والنجوم بحديث اطلع به على الناس مغتبطاً كما يزهو الصحفي حين يفوز بحديث زعيم أو عظيم مع ما بين الحديثين من تفاوت ؟

ودار بخاطري أننا أنشأنا مدارس لتعليم اللغات الحية وعكفنا على دراستها حتى قتلناها ، وأنشأنا معاهد لتعليم اللغات الميتة ، وعكفنا على ذكرها حتى أحييناها ، واحتدم بيننا الجدل فيما نفعل حتى اختلط الشك باليقين ، وانتصر قوم لتركي مبارك وتشيع قوم لأحمد أمين ، وما في ثبت تلك المدارس والمعاهد مدرسة لتعليم لغة الطبيعة ولا « حصة » لدراسة لسان السماء والأرض الذي تنطق به كل المخلوقات ولا يفهمه إلا الأقلون ؟ !

وقدرت أن من الخير لنا أن نهيب بالشعراء والأدباء ليدلوا الناس على هذه المدرسة ويبسطوا لهم نظامها ومنهج الدراسة فيها ليقبلوا على دراسة لغة الطبيعة وتخصص أسرارها بالبحث ، وقدرت أن الإقبال على هذه المدرسة رهن بما يثار حولها من دعاوة وإعلان . ولم لا نحيط الفكرة بالدعاوة والإعلان ليقبل الناس عليها ونحن في هذا الزمان نحيط الباطل بالدعاوة والإعلان حتى نحسبه حقاً ، ونبهرج الكذب والمين حتى يبدو لنا صدقاً ، واستوت لي في هذا التفكير صورة (إعلان) عن هذه المدرسة فإذا هي كما ترى :

مدرسة تعليم اللغة الطبيعية

المدرسة مؤسسة منذ خلق الله الكون وجعلها تذكرة وعبرة لأولي الألباب . ومواد الدراسة فيها لا يحصيها حصر ولا يحيط بها بيان ، يأخذ منها الطلاب بقدر ما تسع جهودهم وتحمل أفهامهم : منها السماء ونجومها ، والسحب وأمطارها ورعودها وبروقها ، والشمس والقمر ، والليل والماء ، والجبل والسهل ، والشجر والثمر ، والرياح والعواصف ، والرمل والحصى ، وكل ما تفزع إليه الأبصار البصيرة حين تضيق بها سبل الحياة فتلتمس في جمالها النجاة ، وحين تحتبس النفس في ظلمة المادة فتلتمس الفرج في نور الطبيعة . ويدرس بالمدرسة الإنسان وطبائعه ، والحيوان وخصائصه ، كما تدرس العلل والأمراض في مدارس الطب وصحة الأبدان . والدراسة في هذه المدرسة ليلية حتى دراسة الشمس ! وقد اختير الليل لأن سواده ينم عن أدق أسرار الطبيعة كما ينم سواد العيون عن أسرار القلوب . والطبيعة خفيرة رقيقة يؤذيها الأضواء الوهاجة ، وتؤلمها الأصوات الصاخبة ، فلا تبدو في أنصع أثوابها إلا في سواد الليل ، ولا يشرق وجهها إلا بعد غروب الشمس ، ولا تستيقظ إلا حين ينام الناس ، ولا تنطق إلا حين يصمت كل لسان . ويشترط للانتظام بهذه المدرسة أن يقدم الطالب شهادة بأنه قد مارس الجمال والحب والفن فلم يفرق بين ثلاثتها ، وذاق آلامها وآلامها وحلاوتها ومرارتها . ولا تقوم وثيقة الزواج مقام هذه الشهادة . وأن يقدم شهادة موقعاً عليها من اثنين من كبار علماء الأرض يعترف فيها معهما بأن مبلغ علمه وعلمهما أن الثلاثة

لا يعلون شيئاً . والمدرسة تمد الطالب العلم بلغة الطبيعة ، وعليه بعد هذا أن يناجيها بلسانها فيفهم أسرارها ويستودعها أسراره ويقدس جمالها ويحدث عن جلالها . وأنه لوفق سعيد إن استطاع أن يمضي معها في سبيل . »

* * *

وبعد فالشاعر أو الناثر الذي يفهم لغة الطبيعة ويتمرس بها لن يكون أديه غثاً ولا تافهاً ، ولن يجد فيما يخرج للناس أو لنفسه من شعر أو نثر عناء ولا عنتاً إلا بمقدار ما يختار من الألفاظ جزلها وما يسبغ على أسلوبه من طلاوة . ذلك بأنه في إبراز المعاني والأخيلة والتشبيهات لا يحتج من بئر عميقة ، ولا يرحل إلى مكان سحيق ، إنما يتناول ذلك كله مما انطبع في نفسه ، وأوحى به حسه ، وانبجس من وجدانه ، يجريه في قصبة يراعه فإذا هو شعر أو نثر يتسلسل تسلسل ماء النهر

هذا هو الأدب الذي توحي به الطبيعة إن سادفت نفساً سفية وإحساساً دقيقاً ووجداناً سامياً وخاطراً سريعاً . تجده أدباً حياً ناطقاً يصدر طواعية لإحساس موجود وشعور قائم بالنفس ؛ ولا مراء في أن انطباع الصور في نفس الأديب شاعراً كان أم ناثراً هو الوسيلة التي تطوع له جيد الشعر أو النثر ، وذلك هو ما يعبرون عنه بهضم المعاني ، يقصدون بالتعبير أن يكون المعنى قد استقر في « بطن الشاعر » وجرى منه مجرى الدم ، وسرى فيه سريان الروح ، فلا يصدر إلا عما انطوى عليه إحساسه وقام بنفسه . وإنه ليجري مجرى هذا القول ما تراه من تأثر شاعر أو ناثر بشعر شاعر قبله أو ناثر تقدمه ، إن كان المتأخر قد بذل جهداً في دراسة أدب المتقدم ، وتقفى أثره وترسم خطاه . هنا لا نلبث أن نرى في شعر المتأخر وأدبه روح المتقدم ونفسه . وهنا يخطئ كثير من الناس فيحكمون على المتأخر بالسرقة ؛ وإنه لتجنٍّ لا مسوغ له ، وتعسف ليس له ما يجيزه . خذ مثلاً شعراء الأندلس في القرن الرابع الهجري ، ترى أنهم أعجبوا بطريقة المتنبي ومذهبه وحاولوا السير على نهجه الذي ابتدع ؛ ولم يكن ذلك بدعاً ، فإن أهل المغرب إذ ذاك قد أغرموا بالتشبه بفحول الشعراء والأدباء من أهل المشرق ؛ وإنك لواجد روح المتنبي ظاهرة بارزة في قول ابن هانئ الأندلسي :

جزعتُ حتى ليس بي جزع وحذرتُ حتى ليس بي حذر

ومن ذا الذي لا يلمس المتنبي في قول ابن زيدون :

سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

وهاك ابن زيدون هذا يقول في رسالته الهزلية : وعناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك حزقة . ألا يذكرنا هذا بما قاله المتنبي في ابن كيغلغ في ميميته التي أولها : لهوى النفوس سريرة لا تعلم ؟ ولندع المتنبي فقد تقفى آثاره كل من جاء بعده فتأثر به بعضهم وسطا عليه البعض ؛ ولننظر إلى البحتري يصف بركة المتوكل :

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

ولنضع إلى جوار هذا البيت بيتاً لابن حديس يصف بركة المنصور :

وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً تقدر سردها تقديرا

إنا لنجد الجوهر في البيتين واحداً ، ولا يقبل بأي حال أن يحمل هذا محمل السرقة ، وإنما هو تفاعل نشأ من امتزاج شعر الشاعر المتقدم بنفس الشاعر المتأخر

على هذا النحو من التفاعل يكون أثر الطبيعة في شعر الشاعر أو نثر الكاتب الذي يفهم لغة الطبيعة ويتأثر بصورها ويؤخذ بمظاهرها ، ويفتن بجمالها ، ويؤمن بجلالها : تفيض عليه غيثاً دافقاً ، وتوحي إليه وحياً صادقاً

وكذلك يكون الشعراء والأدباء

« الأسكندرية » الصاغ أحمد الطاهر

صدر حديثاً

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسي

إخصائي الحالات النفسية

يحوي أحدث تطورات علم الكف به خرائط واضحة تجعلك بسهولة تترجم خطوط الكف فتكشف بنفسك عن إيحاءات خطوط يدك . فتعرف ما يهددك من الأمراض وتتبع طرق الوقاية منها ، وما يسبب لك المضايقات والعقبات وتقضي عليه . وبذلك يكون لك القدرة على تنمية مواهبك واستعداداتك فتصبح قادراً على السير في الطريق التي تكفل لك الطمأنينة والنجاح في الحياة . يطلب من المؤلف ٣٣ ش الملكة الفريدة ومن مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل ثمن النسخة ٥٠ قرشاً و٣ قروش البريد داخل القطر و٥ للخارج .